

98689 - استعمال ضمير المذكر "هو" في حق الله تعالى؟!

السؤال

لماذا نقول عند الإشارة إلى الله في القرآن والحديث "هو" ؟ فكيف لنا أن نعلم بأن الله يشار إليه بلفظ "هو" ؟ فقد أتت إليّ إحدى الفتيات غير مسلمات وسألتنى لماذا لا نقول "هي" عند الإشارة لله ؟ ولماذا نقول "هو" ؟ .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

لسنا ندري إلى من نوجه خطابنا أولاً - أيتها السائلة - ؛ أنكلمك أنت ، وأنت التي وجهت السؤال إلينا ، أم نتوجه إلى تلك التي ظل الشيطان يتلاعب بها ، ويجرئها على الله تعالى ، وهو يمهلها سبحانه ؛ فلم تكتف بالكفر به ، حتى راحت تلقي سخافات عقلها التي بأبائها العاقل ، ولو كان كافراً مثلها ، وأنت - وتلك مصيبتك - تسمعين إليها ، وتظنين أنها قالت شيئاً يستحق السؤال ، والقلق في الجواب ؟

على أية حال ، إنما يعنيننا أنت الآن ، فلا هي سألتنا ، ولا هي من أهل ملتنا حتى نخاطبها بما عندنا ، وإن كنا نجيبك - إن شاء الله - بما يصلح في جوابها - أيضاً - لو كانت من عقلاء قومها ؟ فاعلمي - أيتها السائلة الكريمة - أن سبب سؤال هذه السائلة إنما هو جهلها باللغة العربية التي نتحدث بها ، بل جهلها بشأن غيرها من اللغات .

قال العلامة اللغوي أبو الفتح ابن جني : " باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية . اعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب ، وأن الانتفاع به ليس إلى غاية ، ولا وراءه من نهاية ؛ وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، فإنما استهواه واستخف حلمه : ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة ، التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأحنائها .. " انتهى .
الخصائص (3/248) .

فاعلمي - أيتها السائلة - أن من ضرورات الخطاب والتفاهم أن يُعبر عن كل أحد بما يخصه ويميز جنسه ، وهذه ظاهرة قديمة في اللغات البشرية . " غير أن هناك أشياء لا صلة لها بالجنس الحقيقي ، مثل الجمادات ، كالحجر والجيل ، والمعاني ، كالعدل والكرم ، وغير ذلك .

فمثل هذه الأمور لا يلحظ فيها تذكير ولا تأنيث ، بالمدلول الحقيقي الطبيعي لهاتين الكلمتين . وكان ذلك - فيما يبدو - هو السبب الذي جعل بعض اللغات تقسم الأسماء الموجودة فيها إلى ثلاثة أقسام : مذكر ومؤنث ، وقسم ثالث هو ما يسمى في اللغات الهندوأوروبية " بالمتعاد" NEUTER وهو في الأصل ما ليس مذكراً ولا مؤنثاً .

ولكن اللغات البشرية لم تسر كلها هذا الشوط ، على نمط واحد ، فقد وزعت اللغات السامية - مثلاً - أسماء القسم الثالث ، وهو المحايد ، على القسمين الآخرين ، وصارت الأسماء فيها إما مذكرة وإما مؤنثة ...
ومثل ذلك حدث في اللغة الفرنسية ؛ إذ ليس في أسمائها إلا التذكير والتأنيث ، وكانت الإنجليزية في ذلك أوغل من الفرنسية ...

انظر : مقدمة د. رمضان عبد التواب - رحمه الله - لكتاب " البلغة في المذكر والمؤنث " ، لابن الأنباري (37-39) .
وإذا عرفنا أن تقسيم الأشياء إلى مذكر ومؤنث - حتى ما لا يوصف في واقع الأمر بذلك - هو من خصائص معظم اللغات ، خاصة الحية منها الآن ؛ وليس من خصائص اللغة العربية وحدها ، فلتعلمي أن الشيء - أي شيء - إذا دار بين أن يوصف في اللغة بالمذكر أو المؤنث ، ولم يكن مما يوصف في حقيقة أمره بذلك ، فإن اللغة ترجح الإخبار عنه بوصفه مذكراً ؛ لأنه أخف عندهم ، ولأنه الأصل ، فلا يحتاج إلى علامة ، ويتفرع عنه المؤنث ، بالعلامة الدالة عليه .

يقول إمام النحو سيبويه ، رحمه الله : " واعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث لأن المذكر أول ، وهو أشدّ تمكناً ، وإنما يخرج التأنيث من التذكير ؛ ألا ترى أن " الشيء " يقع على كل ما أخبر عنه ، من قَبْل أن يُعلم أذكر هو أو أنثى ، والشيء ذكر ؟! "

كتاب سيبويه (1/22) وانظر (3/241) منه .

وإذا كان الأمر يدور بين قسمين ، أو أمرين ، أحدهما أرجح من الآخر ، ولو بوجه ما ، " وجب ضرورة اختصاص الرب بأشرف الأمرين وأعلاهما " [الصواعق 4/1308] .

ولذلك تجد عامة من يؤمن بأن له في السماء إلهاً ، يخبر عنه بذلك الضمير " هو " الذي هو لائق به سبحانه ، وهذا أمر فطري لا يحتاج إلى بحث ونظر أو دليل ، فلا تجد عالماً أو جاهلاً ، موحداً لله أو مشركاً به ، إلا ويخبر بذلك عن الله سبحانه ، ولو قد تكلم أحد منهم بضمير المؤنث ، كما قالت لك تلك المسكينة ، لقاموا عليه جميعاً ، وعرفوه بالجهل والضلال المبين .
فكيف إذا انضم إلى ذلك خبر الله تعالى عن نفسه ، في كتابه الكريم ، بل في كتبه المنزلة جميعاً ، بمثل ذلك الضمير .
قال الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (الأنعام:73) وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم:27) وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (الزخرف:84)
والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى .

فكيف إذا كان الله تعالى قد عاب على المشركين أنهم يدعون عبادة الله الواحد القهار ، ويعبدون من دونه إناً ، وزمهم على ذلك وبين قبيح عملهم . قال تعالى : (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيداً) (النساء:117) .
يقول الإمام الطبري رحمه الله : " يقول جل ثناؤه: فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وعبدوا ما عبدوا من دونه من الأوثان والأنداد ، حجة عليهم في ضلالتهم وكفرهم وذهابهم عن قصد السبيل ، أنهم يعبدون إناً ويدعونها آلهة وأرباباً ، وإنثاء من كل شيء أحسنه ، فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودة ، على علم منهم بخساسته ، ويمتنعون من إخلاص العبودة للذي له ملك

كل شيء، وببده الخلق والأمر " تفسير الطبري (9/211) ط محمود شاكر .

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : " أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثا، أي: أوثانا وأصناما مسميات بأسماء الإناث كـ "العزى" و "مناة" ونحوهما .

ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى ؛ فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة ، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء ، وفقدها لصفات الكمال ، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه ، أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن عابديها ، بل ولا عن نفسها نفعا ولا ضرا ، ولا تنصر أنفسها ممن يريد بها سوء ، وليس لها أسماع ولا أبصار ولا أفئدة ، فكيف يُعبد من هذا وصفه ، ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، والحمد والكمال ، والمجد والجلال ، والعز والجمال ، والرحمة والبر والإحسان ، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير !!؟ هل هذا إلا من أقبح القبيح الدال على نقص صاحبه ، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف ؟!! " انتهى ، من تفسير السعدي (203) .

على أننا ننبه أن الله تعالى لا يوصف بشيء من ذلك ، وإنما ذلك من ضرورات الخطاب في اللغة ، وما يحتاجه الناس في التفاهم ؛ فكل ذكر وأنثى مخلوق ، والله تعالى هو خالق الذكر والأنثى : (وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) (النجم:45) . وتعالى الله أن يكون له ند أو شبيه ، أو زوجة أو ولد : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنعام:101) .

وقال تعالى ، في خبره عن مؤمني الجن أنهم لما سمعوا القرآن آمنوا به ، وعرفوا ربهم سبحانه : (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) (الجن:3) .

وما عليك أيتها السائلة إلا أن ترشديها إلى كتابها ، إن كانت تؤمن بأن لها إلها ، أرسل رسولا ، وأنزل عليه كتابا ، فلتنظر فيه ، ولتعلم لماذا .

فإن كانت قد تفجرت غيظا أو لعلها اغتاظ قلبها ، لأنها الأنثى ، والله تعالى لا يوصف بما توصف به الأنثى ؛ فلقد بلغ الكفر من الناس في زماننا كل مبلغ ، فراحت الأنثى تطلب أن تنتصر لبني جنسها من الإناث ، بالحق وبالباطل ، كفعل أهل الجهل والنقص ، يشعر أحدهم بخسة نفسه ، ودناءة حاله ، فيريد أن يعوضه ولو بالباطل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ، ولو كان خطأ " . مجموع الفتاوى (10/292) .

فإن كان وصل بها الجهل والنقص إلى أن تشبه الله تعالى بخلقه ، بل بالإناث من خلقه ، فتلك حال لم يصلها جهال العرب في عبادتهم للأوثان ؛ فإنهم كانوا يعلمون أن الله الخالق الرازق هو أجل من أوثانهم هذه ، ولا يليق أن يكون مثلها . فاحذري يا أمة الله من كل جاهل مارق ، واعلمي أن المرء على دين خليله ، فليُنظر أحدكم من يخال . (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . والله أعلم .